الجغرافية التاريخية

مفهوم الجغرافية التاريخية:

تُعرَّف الجغرافيا على أنها هي في جوهرها علم دراسة المكان والأرض. و رغم الاختلاف الحاصل في تحديد صلتها بغيرها من العلوم الأخرى ، الا أن التوافق حاصل في الاقرار بأهمية العنصر البشرى في المكان. فالجغرافيا باعتبارها علم المكان تكون دون الإنسان الذي يعمر هذا المكان لا تعتبر جغرافيا، لأنه إذا ما أهمل العنصر البشرى لصارت دراستها في نطاق العلوم الأخرى، مثل تلك العلوم التي تتناول الظاهرات الطبيعية المختلفة من أرض وصخور ومعادن وغلاف جوى ونبات وحيوان، وليس هذا مجال الجغرافي، بينما لو أهملنا عنصر الأرض، ودرسنا الإنسان وحده مجرداً عن بيئته لم نعد جغرافيين، فهذا مجال العلوم الإنسانية أو الفلسفية.

من هذا المنطلق فالجغرافيا هي العلم الذي يدرس الأرض بوصفها موطنا حيويا للإنسان. فكل من الجانبين متصل بالآخر متأثرا به، لأن النشاط البشرى وهو هدف الجغرافيا لا يمكن دراسته منفصلاً عن البيئة الطبيعية المحيطة بالإنسان.

وعليه فإن الجغرافيا هي العلم الذي يضم بين ثناياه الظاهرات المختلفة، سواء كانت ظاهرات طبيعية أو بشرية في المكان من وجهة نظر إنسانية. كما يحاول علم الجغرافيا معرفة أثر الإنسان في الظاهرات الطبيعية وتغييرها وتعديلها، لأنها العلم الذي يحلل الظاهرات الطبيعية أو يبحث عن علاقتها بالنشاط البشرى عامة، ومن ثم كانت الجغرافيا علماً تحليلياً كما أنها علم تركيبي.

مما تقدم نري أن مجال دراسة الجغرافيا هو الأرض أو المظاهر الطبيعية. و بفضل جهود الإنسان صار من الممكن أن يتحول إلى مظاهر بشرية أيضاً، اذ أن المظاهر البشرية الحالية لأي مكان ما هي في حقيقتها إلا

نتاجاً للجهود البشرية التي بذلت خلال العصور التاريخية الماضية. وتعتبر دراسة المكان في الوقت الحالي ذات مفهوم طبيعي بشرى، ولا يمكن أن تكتمل دون الإلمام بما حدث لهذا المكان خلال الزمن أي خلال التاريخ. وعند النظر مثلاً إلى أي منطقة من الأرض تحولت بفعل النشاط البشرى من مظهر طبيعي إلى مظهر بشرى، فإن هذا المظهر البشرى هو في الحقيقة تراكم جهود بشرية سابقة خلال فترات تاريخية سابقة. وليس هذا فحسب بل أن المظهر الطبيعي نفسه لأي مكان علي الأرض قد مر خلال الزمن بتغيرات عدة حتى استقر علي الوضع الحالي، ولا يمكن فهم الصورة الحالية لهذا المظهر دون الرجوع إلى الوراء ودراسة تطوره، الذي يسمى تطوراً جيولوجياً.

يجمل روبرت دولر معناها فيقول أنها "علم يدرس الأماكن و المواقع الجغرافية باعتبارها مجالات ارتبط بها الانسان وجدانيا أو فكريا أو خياليا بغية الوصول الى نوع العلاقة الرابطة بينها" و يبدو تاريخيا أن أول ظهور لهذا الاصطلاح ارتبط بمؤتمر باريس 1938 الذي كان من بين أهم نتائجه الاهتمام بأسماء الأماكن والمواقع باعتبارها جزء غير منفصل عن تاريخ الانسان و بيئته.

يري الجغرافي هالفورد ماكندر "أن الجغرافيا التاريخية تقوم أساساً علي دراسة الحاضر التاريخي"، بينما الجغرافيا التاريخية هي من وجهة نظر الجغرافي الكبير جلبرت تندرج ضمن خمسة تعريفات هي:

1- دراسة تاريخ علم الجغرافيا.

2- دراسة تاريخ الكشوف الجغرافية.

3- دراسة تغيرات الحدود السياسية بين الدول.

4- دراسة تأثير البيئة على مجرى الحوادث التاريخية.

5- دراسة الجغرافيا الإقليمية للماضي.

من هذه التعريفات المختلفة نخلص إلي أن الجغرافيا التاريخية هي جغرافية الماضي، الهدف منها التعرض لتطور المكان خلال الزمن، ما يجعلها تعطى بعداً آخر للمكان وهو البعد الزماني الذى يضفى عليها حركة وحياة، وتعطى الباحث فكرة واضحة عن خصوصية المكان وتطوراته. فلا تصبح الحقول والمحاصيل، أو المدن والمداشر، أو المصانع والمناجم مجرد منشآت يدرس توزيعها وحاصلاتها وعدد سكانها وما إليها، بل

تصبح هذه الحقائق الجغرافية في كيان واحد تنبض بالحركة باستمرار، اذ الجغرافية التاريخية ليست جغرافية للتاريخ، بل هي علم له مجاله وهدفه لا ينحدر إلى مجرد تبريرات لمجريات التاريخ، كما أن تاريخ الجغرافيا علم آخر مستقل.

إن تصور ما كانت عليه الجغرافية القديمة هو الهدف الأساسي للجغرافية التاريخية،. وكذلك نجد الجغرافيا التاريخية يمكن تقسيمها إلي مراحل زمنية في العصور القديمة.

وهذا ما عبر عنه ماكولى في كتابه " تاريخ انجلترا " (1848) بقوله: " إذا أردنا أن نقوم بدراسة مجدية لتاريخ أجدادنا، فيجب علينا ألا ننسى أن الأقاليم التى نقرأ تاريخها القديم، كانت بالتأكيد مختلفة عن الأقاليم التى نعيش فيها اليوم "، وقد كتب فصلاً عن تضاريس انجلترا في عام 1685 قال فيه "لو أمكننا بقوة سحرية أن نشهد الحياة في انجلترا 19685 فإنا لن نستطيع أن نميز جزء من مائة جزء من مظهرها الطبيعي، ولن نتعرف إلى بناء واحد من ألف بناء، ولن يستطيع مالك الأرض في الريف أن يعرف حقوله، ولا ساكن المدينة الشارع الذى يقطنه، لقد تغير كل شئ في انجلترا "، وقد كتب تريفليان في كتابه عن تاريخ انجلترا الاقتصادي فصلان يصف فيهما " وجه البلاد " أحدهما في عام 1820 والآخر في عام1826 وقد برزت هذه الكتب الثلاثة(كتاب ماكولى وكتابي تريفليان) كأمثلة نموذجية للأسلوب الذى يتخذه المؤرخون عندما يكتبون في الجغرافيا التاريخية، وقد قال جرين في كتابه بناء انجلترا (1885) عبارته المشهورة " يجب أن نعترف بأن الأرض بما تقدمه لنا من معلومات، أنها من بين المستندات التاريخية، أغزرها مادة وأبعدها عن الخطأ ".

لقد عرضنا لعلم الجغرافيا باعتباره خلفية للتاريخ، ونستطيع أن نعرض للتاريخ كخلفية للجغرافيا، والواقع أنه من العسير في كثير من الحالات وضع حد يفصل بين هذين العلمين التاريخ والجغرافيا، وذلك لأن الجغرافيا الحاضرة ليست إلا طبقة رقيقة لا تلبث طويلاً قبل أن تصبح في ذمة التاريخ،

والسؤال الذى يعرض لنا الآن هو متى يفقد عمل من الأعمال قيمته الجغرافية ويصبح جزءا من التاريخ ؟ وهل نستطيع أن نضع فاصلاً بين الجغرافية والتاريخ ؟ الإجابة على ذلك السؤال ستكون بالنفي لأن العالم في حركة مستمرة، والهدم والبناء، باستمرار في كل أمر من أمور الطبيعة، مثال مظاهر سطح الأرض، ذبذبة المناخ، الغطاء النباتي، وفوق ذلك كله الإنسان كأكبر عامل من عوامل التغيير على سطح الأرض،

بل ونستطيع أن نقول أن المظهر الثقافي والحضاري للإنسان في أجزاء الأرض المختلفة ليس نتاج التضاريس والتربة والمناخ فحسب، بل هو أيضاً نتاج أثر استغلال الأجيال المتعاقبة من البشر لهذه العناصر، وقد أطلق فيدال دي لابلاش على الجغرافيا اسم " علم الأماكن "، ولكنه كان يقصد الأماكن كما تتأثر بالإنسان وليست الأماكن بحالتها الطبيعية عند بدء الخليقة، فليست الشخصية الجغرافية كما يقول أثرا من آثار الأحوال الجيولوجية والمناخية فحسب، بل وليست شيئا نتسلمه من الطبيعة جاهزاً، ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن هذه الشخصية لا تظهر في الوجود إلا عندما يبدأ الإنسان في انتزاع قوته من الأرض التي يحيي عليها ويتغذى من نتاجها.

إن الزمن يترك بصماته التى لا تمحى على سطح الأرض، فربما يتركها في شكل حفريات الكائنات البائدة في الصخر، وفى التغيرات التى تحدثها الأجيال المتعاقبة على سطح الأرض ". والآن وقد عرفنا أهمية عنصر الزمن في الجغرافية، هل يستطيع الجغرافي أن يكتفي بوصف الحالة التي عليها سطح الأرض الآن أو ما نسميه الجغرافيا الإقليمية الحالية ؟ إن المظهرين الطبيعي والثقافي معاً ليسا أمرين ثابتين حتى الأبد، بل هما في تغير مستمر، ولكي نفهم الحاضر لابد أن نعود إلى الماضي لنتعرف علي الوضع السابق وما آل إليه الوضع الآن، ولكي تكون دراستنا أكثر عمقاً لابد أن نرجع إلى أصولها وخطوات تطورها. وهذه هي قيمة الجغرافيا التاريخية.

عندما تدرس ظاهرة جغرافية، ونسأل أنفسنا لماذا تتخذ هذه الظاهرة الشكل الذى نجده عليها الآن، وكيف تم لها ذلك ؟ ونبدأ في البحث عن الإجابة لهذا السؤال، فإننا ندخل في الحال مجال الجغرافية التاريخية، وندرك أيضاً في نفس الوقت قيمتها. نخلص من ذلك أن الجغرافيا التاريخية، هي الجغرافيا في حالة الحركة أو الحالة الديناميكية.

مكان الجغرافية التاريخية:

أين تقع الجغرافيةالتاريخية بين العلوم الجغرافية الأخرى ؟ للإجابة علي هذا السؤال نجد أن معظم الباحثين يميلون إلى اعتبار الجغرافية التاريخية جزءاً من الجغرافية البشرية في مظهرها التطوري، ولكن ربما يكون ذلك قصور في الفهم، فكما أن هناك جغرافية تاريخية بشرية هناك جغرافية تاريخية طبيعية،

وإذا اعتبرنا الجغرافيا علما واحدا له مظهران طبيعي وبشري، إلا أنهما شئ واحد ذو شقين ويشبهان وجهي العملة الواحدة، فإننا نجد أن الجغرافية التاريخية علم واحد موضوعه جغرافيا العصور السابقة علي الرغم من تعرضها لدراسة الجوانب الطبيعية والبشرية، أي أنه لا يمكن إدراجها ضمن أيا منهما فهي فرع مستقل.

ولكن لتسهيل البحث المنهجي عمد الجغرافيون إلى تقسيم علمهم إلى قسمين رئيسيين هما الجغرافيا البشرية والجغرافيا الطبيعية، أما شخصية المكان الواحد فهو موضوع الجغرافية الإقليمية، وكما أن هناك جغرافيا طبيعية حالية، فهناك أيضا جغرافيا طبيعية سابقة في عصور سابقة، وكذلك هناك جغرافيا بشرية حالية، وجغرافيا بشرية سابقة. أما شخصية المكان الواحد في العصور السابقة أو في أي عصر واحد منها فهو موضوع الجغرافية التاريخية لهذا المكان في هذه العصور أو العصر الواحد. ومن ثم فليس هناك جغرافيا تاريخية واحدة، بل عدة فروع للجغرافية التاريخية ومن ثم تم تقسيمها تقسيماً منهجياً أصولياً، و أيضاً تقسيماً إقليمياً.

وفى كل من الحالتين لابد من الأخذ في الاعتبار ما يلي:

1- تحديد الإقليم أو المكان موضع البحث.

2- تحديد الفترة الزمنية أو الزمن الذى يُدرس فيه هذا المكان.

منطلقات البحث في الطوبونيميا:

تُعرَّفُ الطوبونيميا أو الطوبونوميا على أنها علم أصل الألفاظ الذي يقوم على الاهتمام بدراسة أسماء الأماكن الجغرافية، و من ثم البحث في مدى أقدميتها و أصل اشتقاقها اللغوي والتطورات التي ارتبطت بها و في العلاقة بينها و بين التسميات التي تطورت أو تلك التي تلاشت نهائيا وابراز مدى ارتباطها بالمجموعات البشرية التي تعيش عليها وأصولها العرقية.

يعود المصطلح في أصله اللغوي الى الكلمة اليونانية المركبة من شقين: **توبوس** وهي تعني المكان، و **نوما** التي تعني اسم لتصبح اسم المكان.

تتجلى أهمية الطوبونوميا في ما يقدمه لعلماء اللغة و الأثريين و المشتغليين على الجغرافية التاريخية من امكانية تسهيل معرفة أصول السكان وتاريخهم الديني و اللغوي من منطلق أن الارتباط قائم بين الانسان و بيئته المحيطة به.

تقوم الطوبونوميا بالأساس على مدى التشابك الحاصل في الجوانب الموقعية والمعرفة العلمية الى جانب الطذوبوغرافيا التاريخية وحتى دراسة المشهد الطبيعي و الشبكة المائية.

وهي تنطلق من تحليل النص المصدري لمعرفة أبرز المعالم المحددة لحركة التاريخ ومدى علاقته بالجغرافيا.

تسميات المواقع الجغرافية:

يغلب على الظن أن معظم أسماء المدن والأمكنة المعرَّبة في عمومها إنما هم مشتق في الغالبمن أصول قديمة، و أن البعض منها أخذها من القبائل التي استوطنتها أو ربما كانت هي من أخذت اسمها من ذات المكان. و في ذلك نماذج عديدة ببلاد الغرب الاسلامي كمطماطه و بفرن و مغيلة و غيرها، اذ نجد الاسم موزعا بين القبيلة و المكان في نفس الوقت.

الاستقرار العربي بالمنطقة و أثره:

ارتبط استقرار الجماعات العربية الوافدة على بلاد المغرب بحالة الاستقرار في مدينة القيروان أولا بشكل مركَّز. اذ أن معظم تلك الجماعات القبلية العربية كانت مُشكَّلة فيها. كما استقرت جماعات كبيرة في الجهات الشرقية منها كبرقة وطرابلس وحتى منطقة ودَّان الواقعة على المنافذ الجنوبية.

و قد تفاعلت تلك الجماعات و توالدت وامتزجوا بالسكان الأصليين. و اتّسعت عملية الاستقرار لتمتد غربا حتى وصلت حدود الأندلس.

وهاته العلاقات نجدها قد تراوحت بين حالات الاستقرار تارة والحرب تارة أخرى كنتيجة طبيعية لوضع قائم على حالة من اللا تجانس. و تفيد المصادر الجغرافية كالبكري على سبيل المثال بصورة هذا التباين الاجتماعي بين من تسميهم بالمولدَّدين والسكان الأصليين. حيث تضمن مُؤلَّفه اشارات واضحة في معرض حديثه عن

مدن المغرب الأوسط على سبيل المثال لا الحصر كمدينة تهودة و مدن بنطيوس و باغاي و طولقة، و حالة اللاتجانس المجتمعي بادية في ملمحها العام. بما يفيدنا بأن هناك حالة من التغير قد حصلت بعموم المنطقة.

- **مجالات التعمير الحضري والريفي.**

يندرج هذا العنصر ضمن العمارة المجالية التي توزعت بين القرى التي هي ضمن المجال الحضري الى جانب الأرياف التي شملت القرى و القصور التي كانت شكلا من أشكال العمارة الوسيطية.

القرية: غالب ما يرد ذكرها متصلا بالعلاقة مع المدينة كمجال حضري باسط لنفوذه عليها و مستقطبا لها. نجدها تذكر باسم الكُوَرْ يغلب على القرى الافتقار الى المؤسسات و كثرة النشاط الفلاحي و كذا طبيعة مظهرها التضاريسي المتميز بالكتل الجبلية والهضبية والسهلية. من ذلك ما نجده من وصف اليعقوبي لواقع التعمير بجبل نفوسة في الجهة الغربية من طرابلس بقوله: " و منازلهم في جبال طرابلس في ضياع وقرى و مزارع وعمارات كثيرة ". و في الغالب فإن تلك القرى لم تكن على حالة من التجانس من الناحية العددية للسكان وهو ما يتجلى من خلال التعابير التي أوردها الرحالة والجغرافيون أثناء حديثهم عن القرى و تمييزهم بين القرية الصغيرة و الكبيرة و أحيانا يتحدثون بتعبير الحقيرة التي لا ترقى لأن تكون تجمعا سكانيا لقلة تعداد ساكنتها.

ومع قلة الساكنة بالقرى، إلا أنها كانت في الغالب تضم نفس المعالم العمرانية بالمدن مع تباين الفارق بينهما. اذ نجد المسجد الذي قد يكون جامعا في بعض الأحيان الى جانب السور و بعض المنشآت العمرانية كالحمام أو الفندق أحيانا الى جانب الكتَّاب كمركز تعليمي.

القصور: وهي عبارة عن مراكز عمرانية تتميز بالتحصين و بوقوعها ضمن نطاق مجالي محدد محاط بسور و له أبوابه المعلومة و غالبا ما يكون هذا القصر لقبيلة بعينها أو لجماعة قبيلة متداخلة النسب. و يرتبط في نشأته بالظروف الأمنية المحيطة. ويكون مهيأ لتوفير الشروط الأساسية للحياة من حيث توفير الظروف المعيشية خاصة الماء و المؤن. و بالغالب ما تكون تلك القصور ليست بعيدة عن المجالات الزراعية. منها ما يكون بالمرتفعات الجبلية و منها ما هو بالمرتفعات في المناطق الصحراوية.